رسالة الأردن

١ ـ لبنان الّذي يستحقّ الجائزة

تحت هذا العنوان حيّا الشّاعر والرّوائي ابراهيم نصر الله «حالة الفرح الجميلة العارمة الّتي استقبل بها لبنان نبأ فوز كاتبه أمين معلوف بجائزة غونكور. كانت حالة خاصّة.. شاملة إلى حدٍّ لا يوصف. حتّى أنّك أنت القارئ لردود الفعل الّتي صدرت عن أُناس بسطاء، وكتّاب وسياسيّين كبار، لا تملك إلاّ أن تنحني إكباراً لأُناس كبار، بما يفوق كثيراً الجائزة نفسها، وحجمها الكبير في عالم الثّقافة العالميّة».

ومضى الكاتب يستوحي التقليد الثّقافي اللّبناني ليقول: «الفوز بالجائزة تحقّق فرديّاً ولكن الاحتفاء بها على هذه الصّورة كان جائزة للبنان نفسه.. لبشر يحبّون كتّابهم وأوطانهم، ولكتّاب يعرفون أنّ تألّق واحد من زملائهم تألّقٌ لهم جميعاً، ولسياسيّين يعرفون كتابات وكتّاب بلادهم...، لا كعادة أولئك الّذين يتناثرون فوق الكراسي الواسعة ولا يملأون حتّى زاوية من زواياها؛ وإذا ما سألهم صحفي عن كتاب، روايةً كان أم ديواناً، أو طلب منهم أن يتحدّثوا عن أدب بلادهم فإنّه يغمى عليهم لا لشيء إلاّ لأنّهم لا يعرفون عن هذا الأمر شيئاً.

«تقتلك تلك العواصم الّتي تتكمّش كلّ يوم، وتتهمّش كلّ يوم رغم صورها البارقة وياقاتها المنشأة جيّداً، والناصعة كفراغ».

«تقتلك حالةُ الإقصاء الّتي تمارسها ضدّ مبدعيها وكلّ طاقة خلاّقة تتفتّح فيها».. إلى أن يقول «فرح لبنان بكاتبه له أكثر من معنى، ويشير إلى العمق الثّقافي الحضاري لبلد لم تفتّته كلُّ سنوات الدّمار.

«لقد أثبت لبنان فعلاً.. أنّه يستحقّ الجائزة ككتّابه.. وبشره الّذين تدفّقوا على قرية أمين معلوف من القرى المجاورة لتهنئتها بعرسهم جميعاً».

٢ ـ سلطة الماضي على حياتنا المعاصرة

علّقت الصّحافة الأردنيّة بإسهاب على ظاهرة التمزّق الاجتماعي في خضمّ الانتخابات النيابيّة. ولفتتْ نظرَ المراقبين ظاهرةُ لحاق المثقّفين بركب عشائرهم وقبائلهم وحتّى استنفارهم للعشائريّة والقبليّة والإقليميّة. وأثارت الظاهرة ردودَ فعل بلغت حدَّ الصّدمة والاستهجان لدى الكثيرين، لكنّها وجدت التبرير لدى البعض والتّفسير لدى بعض آخر.

وجدت تبريرها في منطق «الزّمن الثّقافي الواحد» حسب تعبير محمّد عابد الجابري، ذلك الغلاف من ورق الحداثة يلفعون به الهجانة الفكريّة الّتي تنتاب الثّقافةَ العربيّة السّائدة، حيث يتعايش القديم والجديد داخل الوعي بصورة توفيقيّة أو تناحريّة. فباسم الدّيموقراطيّة، الظّاهرة الحضاريّة المتقدّمة، يتمّ تمزيق أوصال المجتمع وتفكيك وحدته الوطنيّة. وغاب الوعي بوظيفة المجلس النّيابيّ كهيئة تشريعيّة وسلطة مراقبة على السّلطة التّنفيذيّة وتوجيه لها.. غاب ليملأ فراغه مفهومٌ يقزّم الحياةَ النّيابيّة ويمسخها إلى مجرّد هيئة بلديّة تلبّي الخدمات الأوّليّة أو الحاجات الفرديّة، ولتهبط الحياةُ النّيابيّة بالنّائب إلى مجرّد شاعر جاهلي تحتفي قبيلته ببروزه وتقيم الولائم وتشمخ به بين القبائل.

فما إن بدأت الحملة الانتخابيّة بموجب القانون المؤقّت، قانون الصّوت الواحد للناخب الواحد، حتّى فاضت العصبيّات العشائريّة والإقليميّة والطّائفيّة، يتصدّرها المثقّفون، واكتسحتْ أمواجُها الشّهادات العلميّة والألقاب الأكاديميّة مثلما اكتسحت تطلُّعات الأفراد وأشواقَهم وحاجاتهم فاندلعَت كالحمى في أوصال الجسد. جرَى تهميشُ الفكر وأُعيد إنتاجُ معوقات الوحدة الوطنيّة، إذ بُعث التعصّبُ الضيّقُ للعلاقات الاجتماعيّة القديمة على حساب الانتماء الوطني. وبالنتيجة حُجبت الشّعاراتُ الانتخابيّة ذاتُ المضامين الاجتماعيّة الملموسة وسط غابة من الشّعارات الّتي سدّت الأُفق في المدن والقرى وسوّدت صفحات الصّحف المحليّة.

لقد ثبت إخفاق ثقافتنا في تجاوز مخلّفات العصور والانطلاق إلى الكشف، حيث تُسخَّر المعرفةُ والعلمُ أداةَ بحث وتنقيب وتحليل وصولاً إلى معرفة أوسع وتحرير الفكر والفرد من سلطة الماضي وخرافاته وأصفاده.

والحالُ أنّ قيم الجاهليّة الأولى متحوصلة في حياتنا الاجتماعيّة والثّقافيّة تستحضرها وتشحنها بطاقة البقاء حالةٌ من التبعيّة الثّقافيّة والاقتصاديّة، تغذّيها المدرسةُ والجامعةُ إذ تكرّسان أسلوبَ التلقين والنّسْخ والتّقليد في العمليّة التربويّة، وتقتل ملكة الإبداع والمبادرة. وعندما يغيب الإبداع يهيمن الرّكودُ

ويُعقَدُ لواءُ الظّفر لمنطق البيان والبرهان في عمليّة التّفكير، يراوح داخل منهج القياس، مستنداً إلى الحجج والحقائق المعلومة، مرسِّخاً تقليدَ التشبُّث بالماضي واتّخاذه مرجعاً وقبوله بلا نقد أو تمحيص، وموطّداً مكانة السّلف وسلطته الطّاغية.

إنّهما منطق ومنهج مشدودان للماضي وموروثه من القيم والعلاقات والأفكار ويتّخذان من المعلومة مادّة محاكاة وموقف إذعان. وبهذا المنطق وهذا النّهج أُتيح للسّلطة السّياسيّة أن تدمج المتعلّمين وأصحاب الشّهادات وتهَمِّشَ المبدعين ودعاةَ التحرّر والانطلاق إلى أفق التقدّم المنفتح بلا حدود.

فالانتخابات الأردنيّة وما تخلّلها من ظواهر مستفزّة برهانٌ على أنّنا ننقل عن الغرب معلوماته وظواهرَ سطحيّة من حضارته وقصّرنا عن تناول منهجيّته العلميّة ـ جوهر حضارته، فكرّسنا بذلك فكرَ التخلّف وظواهرَه في حياتنا الاجتماعيّة.

٣ ـ الرّجل الّذي رحل عنّا

قرّرت الهيئة الإداريّة في رابطة الكتّاب الأردنيّين تكريم الرّاحل الشّاعر والمثّقف المبدع عبد الرّحيم عمر بمناسبة مرور نصف عام على وفاته. وبالتعاون مع وزارة الثّقافة ستقام بهذه المناسبة في أوائل شباط القادم ندوةٌ فكريّة عن إبداع الفقيد الّذي ترأّس أوّل هيئة إداريّة لرابطة الكتّاب الأردنيّين وترأّس دورتها الرّابعة عشرة.

وكانت الرّابطة قد كرّمت الفقيد في ذكرى أربعين وفاته الّذي صادف الثالث والعشرين من أكتوبر (تشرين الأوّل). وتحدّث في حفل التأبين مندوب وزارة الثّقافة الأستاذ مؤنس الرزاز ونقيب الصحفيّين ورئيس تحرير صحيفة **الرّأي** ورئيس رابطة الفنّانين الأردنيّين والأمين العام للاتحاد العام للأدباء والكتّاب العرب ومندوب الرّابطة الدكتور ابراهيم خليل ومندوب عن أصدقاء الفقيد هو الدكتور هاشم ياغي ثمّ المهندس أنور عبد الرّحيم عمر.

وكما اتّفقت مختلف التيّارات السّياسيّة والفكريّة الأردنيّة في تقديرها العالي للفقيد، فقد أجمع المتحدّثون في حفل تأبينه على تلك السّمات البارزة في شخصيّته الثّقافيّة، ومن أبرزها تنوّع إبداعه ونظرته الإنسانيّة وانحيازه للحياة وللإنسان وللإبداع.

قال الأستاذ مؤنس الرزّاز: «كان عبد الرّحيم ثائراً يتأبّى الترويض والتدجين، وترك بصمات الأصابع في ذاكرة كتّابنا.. وعلّم أبناءَ الجيل الجديد من الكتّاب أنّ المثّقف موقف».

وقال رئيس نقابة الفنّانين الأستاذ محمّد يوسف العبادي: «أبو جمال كان يؤمن إيماناً عميقاً بقدرة الثّقافة والفنّ على التّغيير والتّطوير في بناء الشخصيّة الإنسانيّة».

وقال الدكتور هاشم ياغي: «لقد عانق الواقعيّة الاشتراكيّة وانتظم في حزب يستظلّ بظلّها ولكن في سماء من الاستقلال والبصر والرّؤى الوسيعة الّتي لم تنس خصوصيّة ذلك الشّاعر العنيد عناداً أقصاه آخر الأمر عن الحزبيّة الضيّقة دون أن يتنكّب طريق اليسار الجريء حتّى آخر رمق في حياته...

وحين قضى عبد الرّحيم عمر تبيّن أنّ الّذين يقدّرونه قدرَه كثرةٌ كاثرة من المواطنين رغم الاختلاف الكبير بين فئاتهم وانتماءاتهم الثّقافيّة والاجتماعيّة».

وقال الدكتور ابراهيم خليل: «عندما حُلّت الرابطةُ [المقصود «رابطة الكتّاب الأردنيّين»] عام ١٩٨٧ لم يكن أبو جمال بعيداً في الواقع عمّا يجري. فقد كان الإجماع قد انعقد على اختياره رئيساً للرابطة. وجاء القرار العرفي المفاجئ وقتئذ كأنّما قُصد به إحباطُ هذا الاتفاق. ولم يكن موقف أبي جمال مهادناً أو ليّناً فقد تحوّل بيته إلى مقرّ بديل تجتمع فيه الهيئةُ الإداريّة وتواصل تحدّيها لقرار الحلّ وتمثيلها للكتّاب الأردنيّين. وقد ألحق هذا به الأذى دون شكّ. وقد آن الأوان ليقال هذا الكلام تأكيداً لمواقف الرّجل الشّجاعة في وجه الهيمنة والتسلّط على الكلمة».

وأشار فخري قعوار إلى أنّ أبا جمال المتنوّع والمتجدّد دائماً لا يتوقّف عند حدّ: «فهو صاحب البرنامج الثّقافي التلفزيوني النّاجح، «ندوة الاثنين». ومن خلاله كان يبدو واضحاً مدى عمق ثقافة عبد الرّحيم وقدرته على محاورة المختصّين في الكثير من القضايا وكأنّه واحدٌ من أهلها. هذه الثّقافة الواسعة كانت تبدو كذلك جليّة وواضحة من خلال أحاديثه وشعره وعموده اليومي وكتاباته المختلفة».

عبد الرّحيم عمر مثّقفٌ صاحبُ موقف ترك بصماتٍ عميقةَ الأثر على وعينا الثّقافي.